تـمّ تحميـل هـذا الملـفّ مـن مكتبـة الأديـب الرّاحـل رمضـان لاونـد | جميـع الحقـوق محفوظـة © www.RamadanLawand.com

حقائق ووقـائع

الحلقة الخامسة عشر

كما تم الحلف بين الدولة القومية ودولة الكنيسة بعد نزاعهما الطويل الذي بلغ مرحلة الإنكار المتبادل والرفض الشامل خلال الثورة الفرنسية ، فإنّ مثل هذا الحلف يبدو وشيكاً بين الدولة الشيوعية ودولة الكنيسة بعد نزاعهما العنيف خلال النصل الأول من هذا القرن . وليس خافياً أن الحلفين هما حصيلة التصلب الغربي الجديد أمام الأخطار المحتملة التي تواجهها الحضارة الغربية في الخارج.

والأخطار الخارجية هذه تتمثل في المجتمعين الحضاريين الآخرين، مجتمع حضارة الشرق الاقصى ومجتمع الحضارة الإسلامية .

وقبل أن ننتقل إلى تعيين خصائص هذين المجتمعين يهمنا أن نسجل الملاحظات التالية:

1) إن روح المسيحية هي روح غربية شارك في صنعها تراث الغرب الطويل الذي استقلت دولة الكنيسة بتمثيله عدداً من القرون قبل أن تستيقظ الدول القومية في الحوض الأوروبي.

2) نشوء " الثنائية " الروحية والأخلاقية بنشوء العلمانية التي كانت وما تزال بمثابة التسوية القلقة لتناقضات الكنيسة والدولة .

3) ظهور الفلسفة القومية التي رغب مفكرو الدولة القومية في جعلها بديلاً أيديولوجيا عن دعوة الكنيسة.

4) تحالف الدولة القومية التي تشرف عليها البورجوازية مع دولة الكنيسة ضد الدولة الشيوعية التي أنكرت الفلسفة القومية والدين المسيحي.

5) بداية تكون حلف جديد بين دولة الشيوعية والدولة القومية ودولة الكنيسة لمواجهة الأخطار الخارجية المتزايدة ودفاعاً عن وحدة الروح الغربية وتدعيماً لحضورها في العالم .

****

ومن حقنا أن نتساءل أخيراً عن الروح الصحيحة لمجتمع حضارة الغرب بعد أن رأينا دولة الكنيسة تتراجع متنازلة عن سلطانها الدنيوية مكتفية بنفوذها الروحي في عالم تنازعها فيه الدولة القومية والدولة الشيوعية، لا السلطات الدنيوية وحسب بل السلطات المعنوية والروحية أيضاً . وبمعنى آخر نتساءل هنا عن أبعاد الشخصية الحضارية للغرب بعد أن أصبحت دولة الكنيسة على هامش الحياة الغربية معزولة عنها وإن بقيت حتى اليوم في خدمة التمدد الاستعماري والثقافي والاقتصادي للدولة القومية أولاً ثم للدولة الشيوعية في مهل وتريث، لا لأنها غير راغبة في القيام بهذه الخدمة لدى الشيوعيين بل لأن الدولة الشيوعية هي التي تقبل على الاستعانة بها حتى اليوم في مهل وتريث.

الجواب هو أن مجتمع الحضارة الغربية ليس مجتمعاً دينياً بالمعنى الذي يبدو فيه النبي المثل الأعلى له.

دور النبي في حياة الغرب دور ثانوي جداً ، أما الله جل جلاله فإنّ حضوره في صميم الحياة اليومية لمجتمع الحضارة الغربية مشروط بعدم تعارضه مع الصلاحيات والأبعاد والاختصاصات التي انتزعتها الدولة لنفسها.

ولما كانت الدولة القومية قد انتزعت صلاحية الإشراف على كل هموم المجتمع ومصالحه الدنيوية ثم بادرت إلى اصطناع أخلاقية خاصة تمثل المصدر المعنوي الروحي لهذه المصالح وتلك الهموم.

ولما كانت الدولة الشيوعية قد تجاوزت الدولة القومية في التنكر لدولة الكنيسة أولاً وتسفيه تعاليمها واتهامها بالرجعية وخداع الجماهير والتحالف مع البورجوازية القومية ضد مصالح الطبقات العمالية ..

فإنّ هذا يعني أن الدولة كممثلة للبورجوازية القومية أو كناطقة باسم الطبقات العمالية هي وحدها التي بدأت تستقل بعد عصر النهضة الغربية بصنع المحتوى الحضاري الحقيقي للإنسان الغربي وبقيادة مقدراته. وهي لا تستعين بدولة الكنيسة إلا بالقدر الذي يساعدها على تحقيق أغراضها وتدعيم كيانها والسعي إلى المزيد من استقلالها بصنع الإنسان الغربي.

ولما كانت الدولة بهذا المعنى حصيلة حتمية للعقلانية المتمردة على غيبية الأخلاقيات الكنيسية فقد وجب أن تكون روح مجتمع الحضارة الغربية نابعة من عبادة العقل واعتبار المنهج الموضوعي وسيلتها الى المعرفة ومصدر الأخلاقيات فيها والغذاء الأساسي لنوازعها الروحية.

إن ما يسمى بالأدب الإنساني عند مجتمع الحضارة الغربية هو الأدب الذي يحاول أن يثبت إمكان الإنسان الاستغناء عن الذات الالهية.

وإذا كان ماركس قد اعتبر دين الكنيسة " أفيون الشعوب " ورفض فكرة وجود الله وحاول أن يجعل من المادية الجدلية التاريخية المنطق الوحيد للمجتمع فإنّ نيتشه نموذج الشخصية القومية لم يتردد فى إعلان " موت الله " تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وإذن فإنّ دولتي القومية والشيوعية تتلاقيان فى إنكار دور الكنيسة مع فارق واحد هو أن الدولة القومية قد بادرت إلى التحالف مع دولة الكنيسة دفاعاً عن ذاتها ضد الدولة الشيوعية المتنامية.

فلا عجب إن اعتبرنا الدولة الشيوعية حلقة لاحقة لحلقات سابقة من سلسلة التطور الغربي العقلاني.

****

هكذا نرى أن العالم الفيلسوف هو المثل الأعلى في مجتمع الحضارة الغربية . أما الكاهن المتدين فهو يمثل في نظر الغربي الجانب الأسطوري من حياة الإنسان. وإذا كان الكاهن ما يزال موجوداً في مجتمع الحضارة الغربية فلأن دولة الكنيسة التي يمثلها هذا الكاهن بالذات مؤسسة متحالفة مع الدولة القومية تخدم أغراضها من ناحية وتدعم مصالحها من ناحية أخرى بتغذية الغيبيات التي يصر القوميون البورجوازيون على اعتبارها أسطورة ضرورية يرى فيها الشيوعيون " أفيون للشعوب ". وهكذا يتلاقى الفريقان في تقييم دور الكنيسة .

في ضوء هذا المفهوم نستطيع أن نعتبر حضارة المجتمع الغربي " حضارة ثقافة " بمعنى أنها حضارة العقل الذي يستقل في مواجهة الوجود كله مستعيناً بالمعرفة الموضوعية وحسب .

مجتمع الحضارة الإسلاميـة :

إذا كان الحد الجغرافي في الأقصى لمجتمع الحضارة الغربية هو الخط الذي يمتد من الجنوب إلى الشمال عبر السواحل الغربية للبحر الابيض المتوسط فإنّ الحد الجغرافي لمجتمع الحضارة الإسلامية هو ما وراء ذلك إلى الشرق . فهو إذن مجتمع متوسطي كما هي بذور المجتمع الغربي ، ولكنه في الشرق من البحر لا في غربه .

يمتاز المجتمع الحضارة الإسلامية في أنه مجتمع ديني .. إن كل الفقرات الحضارية الكبرى التي حققها هذا المجتمع منذ قرون عديدة خلت قبل المسيح وبعده كانت قفزات دينية . والمصلحون الكبار الذين أحدثوا انعطافاً في التاريخ الحضاري لهذا المجتمع هم الأنبياء .

والرجال الذين أيقظوا إرادة الجماهير فيه وكانوا بمثابة الروافد التي تغذي المجرى النبوي الكبير هم أيضاً من طراز الأنبياء .

والصوت العبقري الذي استجابت له قلوب الملايين وخرجت به الجماهير من مرحلة الانطواء إلى مرحلة الانفتاح ومواجهة العالم كله هو صوت نبي.

إن أرض الجزيرة العربية والبلدان المحيطة بها من كل جانب والتي كانت وما تزال بمثابة الحوض الكبير الذي تصب فيه روافد الجزيرة البشرية هي كلها بلاد النبوة وأرضها.

في العراق وسوريا ومصر ثم في الجزيرة العربية بالذات وضعت ملاحم صنعها الأنبياء وشارك في خوض معاركها الإنسان الذي عاش مع هؤلاء الأنبياء، فأنكرهم تارة واعترف بهم تارة أخرى ، ووقف موقف الحيرة من دعواتهم الإصلاحية التطهيرية مرة ثالثة .

ولكن النبوة في هذه المنطقة الواسعة من شرقي البحر الأبيض المتوسط لم تبلغ أقصى غاياتها وترتفع إلى مستواها العالمي وتتحول إلى مجتمع ذي حضارة تتجاوز التخوم والحدود القومية لتصبح رسالة الإنسان إلى الإنسان إلا بالموجة العربية التي حركتها وأخرجتها من أرض الصحراء دعوة النبي محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

على أن موجة الجزيرة لم تكن الوحيدة من نوعها . فقد سبقت بموجات بشرية كثيرة كما لحقت بها موجات أخرى . ولكنها هي بالذات كانت دون سواها ذات محتوى خاص لا تشاركها فيه أية موجة سابقة أو لاحقة .

لقد كانت هذه الموجة مسيرة حضارة ، وشعلة فكر ، وإرادة واعية لصنع دولة على الصورة التي أرادها النبي العربي عليه السلام بينما كانت الموجات الأخرى في العالم عمليات تسلل خفي بطيء لا توهج فيه ولا أصالة كما يحدث دائماً عند الحدود الفاصلة بين مجتمع المدينة ومجتمع البادية ، أو مجرد انفجارات بربرية خرجت منها جماعات بعقلية القطيع التي تسيطر فيها غريزة التدمير العمياء كما هو الشأن في الموجات البربرية التي اخترقت أطراف الامبراطورية الرومانية ثم طغت وأشاعت الرعب والدمار والموت بقيادة البربري المغولي اتيلا أو كما كان شأن الحملات التخريبية التي قادها رجال من أمثال هولاكو وجنكيز خان وأخيراً تيمور لنك .

****

كانت موجة الجزيرة العربية في النصف الأول من القرن السابع الميلادي موجة إحياء فأثبت صانعوها أنهم الأبدال الذين ينتظرهم العالم للخروج من ظلمات حضارة ودول كانت تتعثر في طريقها بعد التآكل الذي أصاب العقول والأرواح والأخلاق في أبنائها.

والموجة العربية هذه هي التي كانت وما تزال بمثابة النواة لمجتمع الحضارة الإسلامية ومجراها الكبير الذي تصب فيه كل الروافد أو تخرج منه .

وإذا كان ما يسمى بالأدب الإنساني عند مجتمع الحضارة الغربية قد عين لنفسه أبعاداً عالمية ونجح في تحقيق هذه الأبعاد في سلسلة من المغامرات العسكرية والاقتصادية فإنّ الإسلام عند مجتمع الحضارة الإسلامية قد خرج إلى الدنيا ديناً عالمياً أيضاُ ، ونجح في تحقيق أغراضه في حوار عملاق جرى بين حاملي رسالته الأولين وهم العرب وبين الشعوب التي تحيط بهم من كل جانب وتخللت هذا الحوار مغامرات عسكرية أيضاً . وبفضل الحوار والمغامرات العسكرية ظهر دين عالمي ولغة عالمية . الدين هو الإسلام . واللغة هي العربية ..

****

لكن المد الإسلامي العربي لم يقتصر في انتشاره على الجانب الشرقي من المتوسط بل قفز إلى الغرب من شبه الجزيرة الايبيرية " الأندلس " وحاول اختراق البر الكبير " أوروبا " كما كان يقول العرب الأقدمون ، لكن خطواته لم تلبث أن تعثرت حين بلغت وسط فرنسا أو أبعد قليلاً إلى الشمال . كما تعثرت هذه الخطوات طويلاً عند أسوار القسطنطينية . السبب في هذا التعثر هو أن أطماح قادته كانت اكبر من أن تحتملها الموجة البشرية العربية التي ضمت بين جوانبها كثيراً من الحواجز والأجسام الغربية متمثلة في شعوب وقبائل لم ترتفع إلى مستوى هذه الاطماح.

وكان على هذه الموجة أن تقف ووقفت فعلاً ، وكان عليها بعد ذلك أن تحافظ على مكاسبها وقوة الروحية التي حققت لها انتصاراتها الأخلاقية والثقافية ولكنها عانت الكثير من المتاعب فزلزلتها التناقضات الداخلية التي بدأت سياسية أولاً ثم أصبحت ذات طابع اجتماعي فكري روحي.

وبانتصار هذه الموجة العربية التي وقف الغرب فيها موقف المدافع رافعاً الاندماج فيها أو التسليم لها قصرت الحضارة الإسلامية جهودها كلها على شيئين اثنين :

أولا – مقاومة عناصر التفكك الداخلي وهي جيوب داخلية متباعدة غذتها مصالح اقليمية أو تناقضات سياسية عربية .

ثانيا – تطوير محتواها الاجتماعي الثقافي وتعمير المناطق التي أصبحت داخلة في حدود امبراطوريتها الواسعة ثم لم تمض خمسة قرون حتى بدأت ردة الغرب فتحول دفاعه إلى هجوم واسع غذته دولة الكنيسة التي كانت تستقل في ذلك العصر بالإشراف على مقدرات شعوبه . وقد أطلق على هذا الهجوم الذي استمر مئتي عام اسم "الحروب الصليبية " .

لكن فشل الهجوم الصليبي لم يضع نهاية لحملات الغرب المسيحي على الشرق الإسلامي . كل ما حدث هو أن الغرب قد بدأ يعيد النظر في طريقة تفكيره وتنظيم مجتمعاته محاولاً القيام بأوسع عملية نقد ذاتي. ولم يمض قرن ونيف على نهاية آخر هجوم صليبي سقط دون أغراضه ولحق أصحابه عار الهزيمة بوقوع ملكهم لويس التاسع في الأسر للمرة الثانية حتى اختار الغرب نوعاً آخر من التوسع واتخذ وجهة جديدة فبدأ عهد المغامرات التجارية والكشوف الجغرافية .

****

لقد أدرك الغرب أن العالم الإسلامي سابق له في ميادين العلم والتنظيم والإدارة والمال، وأن الانتصار على هذا العالم بحرب مجابهة أمر غير ممكن.

أما المغامرات التجارية المسلحة فقد تحولت في الوقت نفسه إلى حملات جانبية مسلحة على الثغور الخلفية للعالم الإسلامي فمخرت السفن البرتغالية مياه البحر حول افريقيا ودخلت المحيط الهندي وانتزع أصحابها لأنفسهم رقبات جسور في أفريقيا الشرقية وسواحل عمان وبعض السواحل الفارسية والهندية .

وتلاحقت موجات السفن التجارية المسلحة وبدأت معركة طويلة النفس تحتاج إلى الصلابة والصبر والهجمات اليائسة التي تتميز بها جماهير البروليتاريا المتمثلة في الشعوب الغربية الفقيرة .

وأما عهد الكشوف فقد أتاح للمنشقين على الكنيسة الرومانية أن ينجوا بأنفسهم من البر الأوروبي إلى البر الأميركي وجزر المحيطات التي لم تبلغها موجة الحضارة الإسلامية .

****

كان هذا كله يحدث بعيداً عن مجتمع الحضارة الإسلامية وبعبارة أدق بعيداً عن الكيان الرئيسي لمجتمع الحضارة الإسلامية القائم في شرقي البحر الأبيض المتوسط . يضاف إلى ذلك أن التناقضات الداخلية في مجتمع الحضارة الإسلامية قد ذهبت بعيداً في تمزيق وحدة الإسلام مما شغل المسلمين عن مراقبة التحولات الغربية وصرفهم فى الوقت نفسه عن تجديد أساليبهم في العمل السياسي والاجتماعي، أولاً لضعف مطرد في شعلتهم العبقرية، وثانياً بعامل الغرور الذي نشأ على أثر دحرهم للمهاجمين الصليبيين .

كان المجتمع الإسلامي بعد القرن الخامس عشر الميلادي يجتر نفسه ويكرر ذاته . ولم يكتشف أن التكرار أو الاجترار هو سقوط في ميدان الحضارة .

****